الفصل الأول

اشتقاق الخط العربى

النظريات المختلفة فى أصل الكتابة العربية الشمالية

نظرية التوقيف :

تكاد تجمع المصادر العربية القديمة على أن الخط الذى كتب به العرب « توقيف » من الله ، علمه « آدم » عليه السلام فكتب به الكتب المختلفة ، فلما أظل الأرض الغرق ، ثم انجاب عنها الماء ، أصاب كل قوم كتابهم ، وكان الكتاب العربى من نصيب اسماعيل عليه السلام . وهذا الرأى لا يقوم على أساس من العلم أوسند من التاريخ الصحيح ، اعتنقه العرب وأشاعوه لتأييد النظرية التى تذهب إلى أن « اسماعيل » أبوالعرب المستعربة التى منها قريش أول من تكلم العربية — تعلمها من العرب المتعربة ثم تعلمها عنه بنوه .

ولقد فطن إلى ما فى هذا الرأى من غثاثة المؤرخ الاجتماعى

« ابن خلدون » الذى يقرر فى « المقدمة » أن الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية ، فهو على ذلك ضرورة اجتماعية اصطنعها الإنسان ورمز بها للكلمات المسموعة ؛ والكتابة على ما هو معروف المرتبة الثانية من مراتب الدلالة اللغوية ، تابعة فى نموها وتطورها شأن كثير من الصناعات المعاشية لتقدم العمران .

والكتابة لهذا السبب تنعدم مع البداوة وتكتسب بالتحضر ، لا يصيبها البدو عادة إلا مقيمين على تخوم المدينة .

والمعروف أن العرب اشتغلوا من قديم الزمن بنقل التجارة عبر شبه الجزيرة العربية ، بين اليمن « والبتراء » وجنوب الشام ، وأنه كان لقريش بوجه خاص علاقات تجارية مع أهل الشمال وأهل الجنوب : مع الأنباط والغساسنة فى تخوم الشام ، ومع المناذرة واللخميين فى أقليم « الحيرة » ، ومع العرب الجنوبيين فى اليمن .

ويشير القرآن إلى رحلتى الشتاء والصيف إلى تلك الأنحاء ، وكانت تقوم بهما « قريش » بقصد التجارة والكسب فى الجاهلية ، فأفادت منهما شيئاً غير يسير من أسباب الحضارة ومظاهر العمران .

النظرية الجنوبية (الحميرية) :

وشاع بين العرب كذلك أن خطهم مشتق من « المسند » الحميرى ، وأصحاب هذا الرأى سواء القدماء أو من نحوا نحوهم فى البحث من المحدثين ، لا يستندون إلى دليل مادى ، فليست هناك علاقة ظاهرة بين خطوط « حمير » فى اليمن والخط العربى الذى انتهى إلينا .

ويرجح أن يكون منشأ هذه النظرية أن اليمن التى فرضت فى وقت ما سلطانها السياسى على بعض الأمم العربية الشمالية فى حكم دولتى « سبأ وحمير » فى القرنين الأول والثانى قبل الميلاد ، لا بد أن تكون قد فرضت على تلك الأمم ثقافتها كذلك ، كما قد يكون الباعث على اعتناق هذه النظرية ما يعرفه العرب من أن مؤسسى الدولة « السبأية » فى اليمن أصلهم من إقليم « الجوف » فى شمال نجد والحجاز ، وهو الإقليم الذى كان الأشوريون يعرفونه باسم « عريبى » وكانت تحكمه ملكات من بينهن ملكة سبأ . لهذا لا يبعد أن تكون هذه العلاقات السياسية وعلاقات الهجرة بين جنوبى بلاد العرب وشماليها سبباً فى الاعتقاد الذى فشا

وثبت خطؤه أن العرب الشماليين اشتقوا خطهم من الخط « المسند الحميرى » الجنوبى .

والمعتقد الآن أن النقوش الحميرية الجنوبية لم تجاوز فى رحلتها نحو الشمال فى إثر سلطان اليمن السياسى بلاد مدين ، وأن ظهورها فى تلك الانحاء كان أثراً من اثار الاستعمار اليمنى لديار اللحيانيين والثموديين والصفويين فى الشمال ، لم يلبث أن زال بزاوال ذلك السلطان . وقد نفت المقارنة التى عقدت بين النقوش الحميرية المكتشفة فى اليمن والنقوش العربية الأولى وجود أية علاقة بين الاثنين .

ويرى ابن خلدون فى كلام له يتصل بهذه النظرية الجنوبية أن الخط بلغ فى دولة « التبابعة » فى اليمن مبلغاً من الإحكام والجودة ، لما بلغت دولة التبابعة من الحضارة والترف ، وهو يذهب إلى أن الخط انتقل من اليمن إلى الحيرة لما كان بها (أى بالحيرة) من دولة « آل المنذر » نسباء التبابعة اليمنيين فى العصبية ، والمجددين لملك العرب فى العراق ..... ثم يذهب فى زعمه إلى أبعد من ذلك فيقول : « ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش » ويقع ابن خلدون بذلك فى الخطأ الذى وقع فيه كثير غيره ، فهو يرى أن

الخط الذى انتهى إلى قريش فكتبت به فى الاسلام متصاعد إلى الحيرة من اليمن ثم منحدر من الحيرة إلى الحجاز ، وبمعنى آخر هو يرى أن الأصل فى الخط العربى الحجازى الذى نكتب به إنما هو خط التبابعة المشهور بالمسند الحميرى .

وقد أثبت البحث العلمى إسراف هذه النظرية فى الخطأ كما سيتضح فى موضع آخر .... على أن ابن خلدون يعترف فى كلامه عن الخط العربى أن الخط المسند خط منفصل الحروف. وليس الخط العربى الذى انتهى إلى قريش — على هذه الصورة .

النظرية الشمالية (الحيرية) :

وهذه نظرية عربية أخرى يذكرها عدد من المؤرخين العرب وعلى رأسهم « البلاذرى » الذى يروى عن عباس بن هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن جده وعن الشرقى القطامى، أن ثلاثة من « طى » اجتمعوا فى « بقة » هم مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلم منهم قوم من أهل الأنبار ثم تعلم عن هؤلاء نفر من أهل الحيرة . . . يقول : وكان « بشر بن عبد الملك» الكندى أخو

« الأكيدر » صاحب « دومة الجندل » يأتى الحيرة فيقيم بها الحين فتعلم الخط العربى من أهلها — ثم أتى مكة فى بعض شأنه، فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة من كلاب يكتب ، فسألاه أن يعلمهما الخط فعلمهما الهجاء ثم أراهما الخط فكتبا ، ثم أتى بشر وأبو قيس الطائف فى تجارة يصحبهما غيلان بن سلمة الثقفى، وكان قد تعلم الخط منهما ، فتعلم الخط منهم نفر من أهل الطائف . يقول :

« ثم مضى بشر إلى « ديار مضر » فتعلم الخط عنه نفر منهم ثم رحل إلى الشام فتعلم الخط منهم أناس هناك . . . وهكذا عرف الخط بتأثير الثلاثة الطائيين وبشر عددٌ لا يحصى من الخلق فى العراق والحجاز وديار مصر والشام .

وهذه النظرية تحاول أن تفسر كيف انتهت الكتابة من الحيرة إلى الحجاز ، ونحن نستسيغ منها أن تكون الحيرة مركزاً من مراكز تعليم الخط العربى فى وقت ما — لا ضير فى ذلك — لأن خط العرب الشماليين انتهى فى وقت من الأوقات إلى هذه البقعة وهو يرحل رحلته من موطنه الأول (ديار النبط) إلى الحجاز ، بطريق دومة الجندل والعراق الأوسط . . . ومن المقبول إذن أن تكون الأنبار

والحيرة قد تلقفتا هذا الخط من بعض جهات الشام ثم أزجته الأنبار والحيرة إلى الحجاز قائمتين بدور الوسيط ، ولا شك فى أن « دومة الجندل » كانت طريق انتقال ذلك الخط إلى المدينة ومكة إذ لا معدى لمرتحل من حوض الفرات الأوسط إلى الحجاز من أن يمر فى تلك الأوقات بدومة الجندل .

ذلك كله مستساغ ، ولكن لا يكاد الإنسان يفهم لماذا يناط انتقال الخط العربى بشخصية بشر بن عبد الملك الكندى الذى تجعل منه الرواية جائلا كلف نفسه مشقة الانتقال إلى أرجاء مترامية من شبه الجزيرة العربية يعلم الخط ، وهو ذلك «الارستقراطى» المترف الذى لا يجول لهذا الغرض .

وانتقال ظاهرة ثقافية كظاهرة الكتابة هذه أمر يكون بطبعه بطيئاً يصعب أن نتميز فيه أشخاص الناقلين ، على أننا نستطيع أن نستفيد من الرواية شيئاً آخر هاماً ، فعلى فرض أن شخصية بشر هذه قد وجدت فعلا وكلفت نفسها هذه المهمة العسيرة فلا بد أن تكون قد عاصرت « سفيان وحربا » ولدى أمية . ومعنى ذلك أن الكتابة العربية لا بد أن تكون قد رحلت رحلتها إلى الحجاز فى خواتيم القرن الخامس الميلادى .

أما ابن النديم صاحب الفهرست فلا يذكر اسم « بشر بن عبد الملك » فى روايته بل هو يذكر مكانه شخصية أخرى هى « أبو قيس بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب » ويضيف إليها اسم « حرب بن أمية » وينسب إلى واحد منهما نقل الكتابة من الحيرة إلى الحجاز . ولا نرى تفسيراً لهذا التضارب خيراً من القول بأن انتقال الكتابة كان نتيجة رحلة « الأعراب » من شبه الجزيرة إلى وادى الفرات والعكس بقصد تبادل المنافع بالتجارة .

وإن صح إنه كانت لمرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة جهود فى اقتطاع خط يكتب به العرب ، فلا تعدو جهودهم هذه أن تكون ابتكاراً لخط استعاروه من الأنباط الذين كانوا يرحلون من إقليم « حوران » إلى حوض الفرات الأوسط ، على أن الشك يعتور أسماءهم ذاتها ، فهى أسماء يغلب عليها التسجيع ، والراجح أن اسماءهم هذه قد صيغت على هذا النحو من السجع ليحسن وقعها فى الأسماع . والحق أنه يصعب أن يقوم ثلاثة من «بولان» من « طى » بمهمة «أكاديمية» شاقة كهذه لمجرد الرغبة فى توفير خط يكتب به العرب .

النظرية الحديثة :

وعلى الرغم من اختلاف الاراء فى شأن الأصل الذى اشتقت منه الكتابة العربية الشمالية (التى هى كتابتنا الآن)، فانه يكاد يكون هناك اتفاق على أمر واحد هو أن العرب لم يصيبوا دراية بالكتابة إلا حيث كان لهم بالمدنية اتصال . وقد كان اتصال العرب بالمدنية نتيجة لانتجاعهم تلك الأطراف الغنية المحيطة بشبه الجزيرة فى اليمن ووادى الفرات الأوسط وسوريا ونجوع النبط وحوران ، فى هذه التخوم خرجت بعض القبائل العربية عن طبيعتها البدوية وعرفت نوعاً من الاستقرار وأخلدت إلى حياة جديدة واتخذت أساليب الحضر فى كثير من طرائق المعيشة ومظاهر العمران . وكان أكثر تلك القبائل تحضراً ما نزل منها على تخوم الشام لطول عهدها بالاحتكاك بحضارة الرومان ، فى المنطقة الممتدة من شمال الحجاز وخليج العقبة وحيث يقع الآن إقليم شرق الأردن حتى منطقة دمشق، نزلت منذ زمن بعيد قبائل من الأعراب تمت إلى عرب الجنوب بصلة وثيقة ، ولم تلبث أن تكونت لها فى موطنها الجديد وحدة جغرافية خاصة، ونشأت لها فى ديارها هذه ثقافة بعيدة عن ثقافة العرب الجنوبيين .

وعظم شأن هذه القبائل بضعف الدولة الرومانية والأمم المتمدنة المجاورة لها بوجه عام، وبفضل ما كسبته لنفسها بمرور الزمن من مران على القتال والتجارة، وتكونت منها وحدات عربية سياسية أهمها الأباجرة فى «أذاسا» والأرزاس فى «البتراء» (سلع) وتدمر، وعرفت مملكة هؤلاء الأرزاس باسم مملكة «النبط». وبقيت عاصمتهم (البتراء) مزدهرة زهاء خمسة قرون كانت فى خلالها مركزاً تجارياً عظيم الأهمية على طريق القوافل بين سبأ (اليمن) وبلاد البحر المتوسط. ومهما يكن من أمر هؤلاء النبط فهم عرب أغاروا أول أمرهم على أقاليم «آرمية» وتحضروا بحضارتها واستخدموا لغة الآراميين فى سائر شئونهم العمرانية واشتقوا لأنفسهم خطاً من خطوطهم كتبوا به، وإن يكونوا قد احتفظوا بلغتهم العربية التى ظلوا يستعملونها فى شئونهم الخاصة وأحاديثهم اليومية.

وابتدع هؤلاء لأنفسهم خطاً اشتقوه من الخط الآرامى هو الخط الذى نسب إليهم فعرف بالنبطى — وأنه على الرغم من أن مملكة النبط (١٦٩ ق.م — ١٠٦ ب.م) قد زالت من الوجود فى أوائل القرن الثانى الميلادى، إلا أن طريقتهم فى الكتابة ظلت

باقية يكتب بها الأعراب النازلون فى أقصى شمال شبه الجزيرة زهاء ثلاثة قرون ، وإذن فعرب هـذه الأقاليم مروا فى كتاباتهم بأدوار ثلاثة : المرحلة الآرامية ، وفيها كتب هؤلاء بالحروف الآرامية التى تميل إلى التربيع ،ومن سلالاتها التدمرية والعبرية .

والمرحلة الثانية مرحلة انتقال من الخط الارامى المربع إلى الخط النبطى ، والثالثة مرحلة نضوج انتهى فيها الخط النبطى إلى صورته المعروفة التى تميل إلى الاستدارة رغم ما يبدو فيها من نزوع إلى التربيع .

ودراسة هذه المراحل لاتهم إلا المشتغلين بتطور الكتابة ، وهى لهذا لا تعنينا كثيرا فى عجالة كهذه .

وقد أثبت البحث العلمى الدقيق أن العرب الشماليين اشتقوا خطهم من آخر صورة من خطوط النبط ، وعلى نحو ما استعار النبط خطهم الأول من الآراميين استعار العرب خطهم الأول من الأنباط . . . والصورة الأولى للخط العربى لا تبعد كثيراً عن صورة الخط النبطى ،ولم يتحرر الخط العربى من هيئته النبطية بحيث أصبح خطاً قائماً بذاته إلا بعد أن استعاره العرب الحجازيون

لأنفسهم بقرنين من الزمان، وما تزال فى الكتابة العربية حتى يومنا هذا فى بعض الإقطار، وفى كتابة المصاحف بوجه خاص، آثار نبطية لم يستطع أن يتخلص منها الخط العربى على طول الزمن .

هذا والمرجح أن تكون ظاهرة الكتابة قد وجدت سبيلها إلى بلاد العرب بسلوك أحد طريقين : الأول الطريق الدائر من «حوران » إحدى ربوع النبط إلى وادى الفرات الأوسط حيث الحيرة والأنبار ثم إلى دومة الجندل فالمدينة ومنها إلى مكة والطائف . والثانى طريق أقصر، من ديار النبط إلى « البتراء » إلى « العلا » فشمال الحجاز ـ إلى المدينة ومكة .

وسواء كانت رحلة الخط عن هذا الطريق أو ذاك، فالثابت أنها تمت بين منتصف القرن الثالث الميلادى ونهاية القرن السادس وهو الوقت الذى تم فيه تحول الخط العربى من صورته النبطية البحتة إلى صورته العربية المعروفة التى نراه عليها الآن .

تعتبر هذه الحقبة الزمنية مرحلة اقتباس وانتقال. ويساعد على الاعتقاد باشتقاق العرب لخطهم من خطوط النبط وجود «سوق نبطية » فى المدينة فى نهاية القرن الخامس الميلادى، يدل وجودها على وجود علاقات تجارية هامة بين بلاد النبط والحجاز . . .

وهكذا لا يبعد أن تكون الكتابة قد انتهت إلى عرب الحجاز مع التجارة التى كان يمارسها القرشيون واليهود مع الأنباط ، وأن تكون رحلات الشتاء والصيف قد أفادت العرب فائدة ثقافية كبرى إلى جانب ما أفادتهم من الناحية المادية .

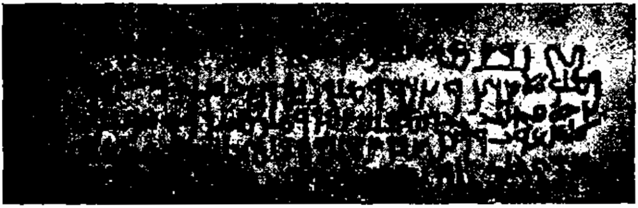

نقش النمارة النبطى المؤرخ ٣٢٨ م ، مثال من خطوط النبط التي أشتق منها الخط العربى الحجازى

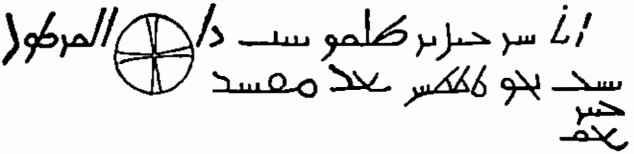

نقش حران المؤرخ ٥٦٨ م آخر مراحل الانتقال من الخط النبطى إلى الخط العربى الحجازي

والذى يدقق النظر فى النقوش المكتشفة فى شمال الحجاز وإقليم

حوران وشبه جزيرة سيناء،وكلها تنحصر بين عام ٢٥٠ للميلاد وخواتيم القرن السادس الميلادى ، يرى وجه الشبه بين النقوش العربية والنقوش النبطية الأصلية . ويلحظ التطور الذى أدرك الكتابة وهى تجاوزأصلها النبطى إلى صورتها العربية التى حذقها العرب قبيل الإسلام ودونوا بها فى الجاهلية الأخيرة مذكراتهم اليومية ، ومن يدرى لعلهم تراسلوا بها وكتبوا بها المعلقات .

وهذه الكتابة التى أصبحت كتابة العرب الحجازيين كانت أول أمرها غير منقوطة ولا مشكولة ، لحقها النقط والشكل فى زمن متأخر قليلا ، خشية التصحيف واللحن .